الفصل الثانى والعشرون

أحوال المدن[1]

لانعرف عن القرن الرابع إلا تصنيفاً واحداً للمدن ، وهو لا يقوم على أساس سياسى ، ويفرق بين المدن على هذا النحو :

(١) الأمصار ، وهى البلاد التى يحلها السلطان ، وتجتمع فيها الدواوين ، وتتقلد منها الأعمال ، وتضاف إليها مدن الأقاليم .

(٢) القصبات ، وهى عواصم الأقاليم ، ومقامها من الأمصار مقام الحجاب من الملوك .

(٣) المدن أو المدائن ، وهى مايلى القصبة فى الأقاليم ، ومقامها مقام الجند .

(٤) النواحى مثل نهاوند وجزيرة ابن عمر .

(٥) القرى وهى الملحقة بالمدن ومقامها مقام الرتجالة[2] .

والعلامة التى تُعرف بها المدينة هى أن يكون بها مِنْبَر ، وقد شدَّد الحنفية بنوع خاص فى أنه لا تقام الجمعة إلا فى الأمصار الجامعة التى تُقام فيها الحدود ، ولما كان رأى أصحاب أبى حنيفة هو المثل عند الأمير ببخارى فلذلك كان ببلاد ما وراء النهر قرى كبار لايعوزها من رسوم المدن وآلاتها إلا الجامع[3] ؛ «وكم تعب

---

(١) ظهر هذا الفصل بعنوان : von der Muhammedanuschen Stadt im 4, Jahrhunderi فى مجلة ZABd. 27 (1912) S. 65 — 74 .

(٢) المقدسى ص ٣٥ ، ٤٧ ، ورويت تقسيمات البلاد لوحظ فيها الخصال النفسية كقول الجاحظ : إن الأمصار عشرة ، الصناعة بالبصرة والفصاحة بالكوفة والخير ببغداد والغدر بالرى والحسد بهراة والجفاء بنيسابور والبخل بمرو والطرمذة بسمرقند والمروءة ببلخ والتجارة بمصر (انظر تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ١٥ ظ) .

(٣) المقدسى ص ٢٨٠ .

أهل بيكند حتى وضعوا بها المنبر ا ه . وقد كان بفلسطين على ضيق رقعتها نحو خمسين منبراً[١] .

وكان من أثر تلك القيمة التى للمنبر ؛ أن الإنسان حتى فى المدن الكبرى كان يلزم مسجداً جامعاً واحداً لا يجد عنه[٢] . وكان ببغداد حوالى عام ٣٠٠ هـ نحو من سبعة وعشرين ألف مسجد[٣] ، ولكن صلاة الجمعة كانت لا تقام إلا فى المسجد الجامع ، وفى مسجد دار الخلافة — لعهد المعتضد حوالى عام ٢٨٠ هـ — وكان هذان المسجدان بطبيعة الحال يضيقان بمن يسعى إليهما من جموع المصلين ، حتى كانت الصفوف تمتد من المسجد فى الشوارع حتى تنتهى إلى دجلة ؛ وكان المتباطئون فى السعى إلى الجمعة يدركون المصلين ، وقد ضاق الوقت والمكان ، فيصعدون من سميريّاتهم ويفرشون بعض ما عليها ، وإذا قامت الصلاة نقل المكبّرون التكبير للناس عند الركوع والسجود والنهوض والقعود[٤] . وكان بالفسطاط أيضاً مسجدان للجمعة : المسجد الذى بناه عمرو بن العاص والمسجد الذى بناه أحمد بن طولون[٥] . أما البصرة فكان فيها فى القرن الثالث الهجرى سبعة آلاف مسجد ، وكان بها فى القرن الرابع ثلاثة جوامع[٦] . وهذا يبعث على الدهشة وذلك لتغيّر المعنى الإسلامى القديم للمدينة ، وتتلخص أهمية ذلك العصر فى أن الرسوم الإسلامية الأولى رقّت وتضاءلت فى جميع مظاهر الحياة ،

---

(١) الأصطخرى ص ٥٨ .

(٢) كان الشافعية بنوع خاص متشددين فى ذلك ؛ انظر حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٥٥ .

(٣) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٧٦ حيث ذكر عدد الحمامات بدلا من عدد المساجد ، ويذكر اليعقوبى (كتاب الجغرافية ص ٢٥٠ ، ٢٥٤) أنه كان بالجانب الغربى من بغداد خمسة عشر ألف مسجد ، وبالجانب الشرقى ثلاثون ألفاً .

(٤) تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ١١٥ . (٥) الأصطخرى ص ٤٩ .

(٦) جغرافية اليعقوبى ص ٣٦١ ، والمقدسى ص ١١٧ .

كما أنها تتلخص فى ظهور الرسوم الشرقية القديمة من جديد وبقائها بالإجمال على الصورة التى اتخذتها فى ذلك العهد . ففى القرن الرابع بدأ أولو الأمر فى جعل عدد المساجد ذات المنابر متمشياً مع حاجات الناس ومطالبهم ، فيذكر المقدسى أنه كان إلى جانب مسجد عمرو بن العاص ستة جوامع تقام فيها صلاة الجمعة ، وأن الزحام كان يشتد فى جامع عمرو حتى تمتد الصفوف فى الأسواق على أكثر من ألف ذراع من الجامع ، وحتى تكون القياسير والمساجد الصغيرة والدكاكين حوله من كل جانب مملوءة بالمصلين[1] . وقد أحصى ناصر خسرو فى عام ٤٤٠ هـ غير هذه المساجد السبعة أربعة أخرى فى القاهرة[2] . أما فى بغداد فكان ازدياد عدد المساجد أبطأ سيراً ؛ فكانت الصلاة لا تقام فى أول الأمر إلا فى مسجدى المدينة والرصافة إلى وقت خلافة المعتضد ، فإنه فى عام ٢٨٠ هـ جعل الناس يصلون فى دار الخلافة بقصر الحسنى على دجلة ، ولما جاء المكتفى أقام فى هذا المكان مسجداً جامعاً ؛ فاستقرت الصلاة فى المساجد الثلاثة حتى عام ٣٢٩ هـ ؛ وذلك أنه كان بالموضع المعروف ببراثا مسجد يجتمع فيه قوم من الشيعة رُفع للمقتدر أنهم يجتمعون على سب الصحابة والخروج على الطاعة فأمر بكبسه وأخذ من فيه ، ثم هُدم حتى سُوى بالأرض ، فأمر بحكم بإعادة بنائه وإحكامه وتوسيعه ، وكتب فى صدره اسم الخليفة الراضى بالله ، ثم جُمِّع فيه وصار أحد مساجد الحضرة . وفى سنة ٣٧٩ هـ وسع مسجد صغير بقطيعة أم جعفر فى الجانب الغربى بعد أن رأت امرأة فى المنام أنها ماتت وأن النبى عليه السلام صلى عليها فيه ووضع كفه فى حائط القبلة ، واستأذن أبو أحمد الموسوى الخليفة الطائع فى أن يجعله مسجداً يصلى فيه أيام الجمعة ، واحتج بأنه من وراء خندق يقطع بينه

---

(١) المقدسى ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٢) رحلة ناصر خسرو طبعة شيفر ص ١٤٠ .

و بين المدينة ، و يصير به ذلك الصقع بلداً آخر ، فأذن الخليفة فى ذلك . وفى سنة ٣٨٣ هـ ، جمّع فى مسجد بناه أحد الهاشميين بالحربية ؛ وذلك بعد إباء من الخليفة المطيع و إذن من الخليفة القادر بعد استفتاء الفقهاء[١] . وفى القرن السادس الهجرى وجد ابن جبير أن المساجد التى يجمّع فيها ببغداد أحد عشر مسجداً ، هذا مع أنها فقدت كثيراً مما كانت عليه حتى أصبحت — على حد تعبير ابن جبير — داخلة تحت قول حبيب : لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديار[٢] .

ولم يكن فى الدواوين سجلات إحصائية للناس سوى التى يحصى فيها من يلزمهم دفع الجزية ، ويظهر أنه فى عام ٣٠٦ هـ أحصى المغنون والمغنيات[٣] ، كما يذكر أيضاً إحصاء للفقراء[٤] ، وقد عنى جغرافيو القرنين الثالث والرابع بذكر كثير من الأرقام مثل أعداد الأبواب فى المدن وأعداد المساجد والحمامات ونحوها ، ولكنهم لم يهتموا قط بذكر عدد السكان . وأخيراً ظهرت طريقة ساذجة فى الإحصاء ؛ فقد ذكر ابن حوقل مرة واحدة أن بمدينة بَلَرْم قصبة صقلية ما يزيد على مائة وخمسين حانوتا للقصابين ؛ وأراد أن يتخذ من ذلك دليلا على كثرة عدد أهلها[٥] . وكذلك أراد بعض من روى للخطيب البغدادى أن يقدر عدد سكان بغداد فى القرن الثالث مستدلا بما ذُكر له من عدد الحمامات مع ما كان فيه من مبالغة ؛ فقد ذُكر له أنه كان ببغداد ستون ألف حمام ، فقدّر أن بإزاء كل حمام خمسة مساجد فيكون ببغداد ثلاثمائة ألف مسجد ، وأقل ما يكون فى المسجد خمسة أنفس فيكون أهلها ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان[٦] . أما فى القرن الخامس فقد تغير ذلك ، فنجد الرحالة الفارسى ناصر خسرو يقدر أن

---

(١) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٦٢ وما بعدها .
(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٣٠ — ٢٣١ . (٣) حكاية أبى القاسم ص ٨٧ .
(٤) التحفة البهية طبعة القسطنطينية عام ١٣٠٦ هـ ص ٣٧ .
(٥) ابن حوقل ص ٨٣ . (٦) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٧٤ .

من أهل أرجان ما يزيد على عشرين ألفاً من الذكور ، ومن أهل جدة ما يقارب خمسة آلاف ، على حين أنه يقدر أهل مكة بألفين ، ويقول إن الباقين فروا من المجاعات ، وهو يقدر أيضاً أهل كل من مدينتي بيت المقدس وطرابلس الشام بعشرين ألفاً من الذكور — ويظهر أن العشرين عنده رقم محبوب[١] . وأوضح من ذلك كله ما قيل في قرطبة حوالي عام ٣٥٠هـ من أن عدد الدور التي بها للرعية دون دور الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ، وأن مساجدها ثلاثة آلاف[٢] .

وكان في المملكة الإسلامية أربعة أنواع من المدن : مدن على الطراز الهلّيني المعروف في حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ والمدن التي على طراز جنوب جزيرة العرب مثل مدينة صنعاء ، ومن هذا الطراز مكة والفسطاط ؛ والمدن التي كانت تُشيّد على الطراز البابلي ؛ والمدن التي كانت على الطراز المعروف في شرق المملكة الإسلامية . وتختص المدن العربية بضيق الدور وارتفاعها ؛ وكان بالفسطاط دور من طبقات كثيرة تبلغ الثمان حتى كأنها المنابر ، وأسفل الدور غير مسكون ، وربما سكن الدار الواحدة المائتان من الناس[٣] ، بل يقول ناصر خسرو : « وتُرى مصر من بعيد كأنها جبل ، وبها بيوت من أربع عشرة طبقة ، وبيوت من سبع طبقات . . وبها أسواق وشوارع توقد فيها القناديل ؛ لأن ضوء الشمس لا يصل إلى أرضها »[٤] . أما المدن الإيرانية فكانت تتألف من قلعة (قهندز) ومن المدينة الرسمية (ولها في العادة أربعة أبواب) ومن قسم تجاري يشتمل على

---

(١) نفس المصدر ص ٦٥ ؛ ٦٧ .

(٢) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى المراكشي طبعة ليدن عام ١٨٤٩ م ج ٢ ص ٤٧ .

(٣) الأصطخري ص ٤٩ ، وابن حوقل ص ٩٦ ، والمقدسي ص ١٩٨ .

(٤) رحلة ناصر خسرو ص ٧٠ — ٧١ من النص الفارسي .

الأسواق ؛ وكان كل قسم من هذه الأقسام محصناً بسوره الخاص ؛ وكان بين المدينة الرسمية والأحياء الخارجة عنها شغب دائم .

وقد ظهر منذ منتصف القرن الثالث الهجرى طراز آخر خامس ، وذلك أن الملوك صاروا يبنون لأنفسهم إلى جانب العاصمة مدنا خاصة يتخذونها مقرا لهم مثل مدينة سامرّا والجعفرية على نهر دجلة إلى جانب بغداد ، ورقّادة التى اتخذها بنو الأغلب بجوار القيروان ، والقطائع التى اتخذها الطولونيون إلى جوار مصر ، وفى القرن الرابع بُنيت المدن التى اتخذها خلفاء الفواطم مقرا لهم مثل المهدية والمنصورية والحمدية والقاهرة ؛ فكانت أعظم المدن نجاحا فى القرن الرابع بل فى تاريخ الإسلام . أما فى الأندلس فقد بنى عبد الرحمن بن محمد فى غرب قرطبة مدينة سماها الزهراء ؛ وخط فيها الأسواق والقصور والحمامات ، وأمر مناديه بالنداء : ألا من أراد أن يبتنى داراً أو يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله أر بمائة درهم ، فتسابق الناس إلى العمارة وتكاثفت الأبنية حتى كادت تتصل بين قرطبة والزهراء[1] . وكذلك ابتنى السلطان عضد الدولة المتوفى عام ٣٧٢ هـ مدينة فناخسرو (وهو اسم عضد الدولة) اختطها على مسافة نصف فرسخ من مدينة شيراز ، وشق إليها نهراً كبيراً أجراه من مرحلة ، وجعل إلى جنبيه بستانا سعته فرسخ ، ونقل إليها الصوّافين وصناع الخزّ ، واتخذ بها القواد دوراً حسنة وعقارات جليلة ، وجعل لها عيداً فى كل سنة يجتمع فيه القوم للفسوق واللهو ، ولكن بعد أن مات عضد الدولة خفّت وأشرفت على الخراب وبطل سوقها[2] .

وكانت هذه المدن تمتاز بالاتساع ، حتى نجد اليعقوبى فى كلامه عن سامرّا لا يملّ من وصف اتساعها ، فيقول : إن المتوكل جعل عرض الشارع الأعظم فيها

---

(١) ابن حوقل ص ٧٧ (٢) المقدسى ص ٤٣٠ — ٤٣١ . وصنعم ياقوت ؛ وانظر : Schwary, Iran, s. 50 .

مائتى ذراع ، وقدّر أن يحفر فى جنبى الشارع نهرين يجرى فيهما الماء من النهر الكبير[١] . وكانت القاهرة فى أول وضعها تكاد تكون مدينة حدائق ، فيذكر ناصر خسرو (ص ٤٥) أن كل الدور منفصل بعضها عن بعض حتى إن أشجار إحداها لا تبلغ حائط الأخرى[٢] .

وقد نالت مياه الشرب فى المملكة الإسلامية عناية كبيرة ، ولكن مجاريها — رغم هذه العناية — لم تبلغ من الكِبَر ما بلغته مجارى الماء عند القدماء ؛ وذلك لأن المسلمين كانوا يشفقون من الإسراف فى العناية بالأبدان إشفاق أهل العصور الوسطى فى الغرب ، وكانوا أكثر تعجباً من أشياء أخرى بناها القدماء ؛ فنجد فى كتاب الموالى للكندى (المتوفى عام ٣٥٠ هـ) هذا السؤال : ما هو أعجب شىء فى الدنيا ؟ والجواب : منارة الإسكندرية ومجارى مياه قرطاجنة[٣] ، وقد أطرى ياقوت (ج ٤ ص) عقود هذه المجارى وأعمدتها التى تشبه المنابر .

وكانت طريقة إمداد الناس بالماء فى قصبة القطر المصرى طريقة لا أثر فيها للرقى قط ، فكان أهل مصر يشربون ماء النيل ، يحمله الحمالون فى الروايا ويصعدون الدور كل طبقة بنصف دانق[٤] . ويحكى ناصر خسرو (ص ٢٤٤) فى عام ٤٤٠ هـ أنه كان بمصر والقاهرة اثنان وخمسون ألف جمل لحمل قِرَب ماء الشرب فى هاتين المدينتين . وفى سنة ٣٨٢ هـ نودى بالسقائين فى مصر أن يغطوا الروايا التى تحملها الجمال والبغال مملوءة بالماء لئلا يصيب الماء الذى يتساقط منها ثياب الناس[٥] .

---

(١) جغرافية اليعقوبى ص ٢٦٦ .

(٢) وقد أصاب القاهرة فيما بعد ما أصاب غيرها من المدن ، حتى نجد ابن سعيد فى القرن السابع يشكو ضيق دروبها وكثرة التراب والأزبال فيها ، وارتفاع مبانيها حتى ضيقت سبل الهواء والضوء (الخطط للمقريزى ج ١ ص ٣١٦) .

(٣) الخطط المقريزى ج ٢ ص ١٦١ (؟) .

(٤) القضاعى ص ٢٠٧ (٥) الخطط المقريزى ج ٢ ص ١٠٨ عن الصولى .

وكان أكثر شرب أهل بغداد من ماء دجلة ؛ وكان السقاؤون يأخذونه إما من النهر مباشرة ويحملونه إلى الدور أو من مواضع تقوم مقام الخزانات وتغذيها نهيرات صغيرة ، بل كان هناك قناتان يجرى فيهما الماء إلى المدينة ، وكلاهما مُغطاة ومحكمة العقد ، وإحداهما القناة التى كانت تأخذ من نهر كرخايا الآخذ من الفرات . وكانت هاتان القناتان أقل إحكاما من القنوات والمجارى الحجرية التى كانت معروفة عند الرومان ، فكانت إحداهما معقودة وفى أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها[1] .

ولما كانت عين الماء بمكة مُرّة حتى كان لا يستطيع الإنسان أن يشرب منها ، فسرعان ما أصبح إمداد هذه المدينة المقدسة بالماء باباً من أكبر أبواب البرّ . وكانت القناة المعقودة تحت الأرض والتى أمرت بإنشائها السيدة زبيدة كثيراً ما تنهدم ، ففى سنة ٢٤٥ هـ غار الماء بمكة حتى بلغ ثمن القربة ثمانين درهماً ، فبعثت أم المتوكل آمرة بإصلاح القناة والإنفاق عليها[2] . وحوالى عام ٣٠٠ هـ كان أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقل الماء من جدة إلى مكة ، وكان الوزير على بن عيسى فى ذلك الوقت بمكة مغضوبا عليه من السلطان ببغداد ، ورأى ضيق الماء على أهل مكة ورأى تلك السخرة ، فابتاع كثيراً من الجمال والحمير ووقفها على حمل الماء ، وأقام لها العلوفة الراتبة ومنع السخرة وحظرها ، وحفر بئراً عظيمة فى الحنّاطين فخرجت عذبة شروباً وسماها الجراحية ، وابتاع عيناً غزيرة بألف دينار ووسّعها حتى كثر ماؤها واتسع الماء بمكة[3] .

وكانت عناية أهل البرّ بماء الشرب فى سمرقند أعظم مما تقدم ، فيحكى لنا ابن حوقل : « وقلّ ما رأيت خاناً أو طرف سكة أو محلّة أو مجمع ناس إلى حائط

---

(١) جغرافية اليعقوبى ص ٢٥٠ . (٢) الطبرى ج ٧ ص ١٤٤٠ .
(٣) كتاب الوزراء ص ٢٨٦ .

بسمرقند يخلو من ماء جمد مسبّل ، وذكر لى من يرجع إلى خبره أن بسمرقند فى المدينة وحيطانها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادة على ألفى مكان يُسقى فيه ماء الجمد مسبّلا عليه الوقوف من بين سقاية مبنية وجباب نحاس منصوبة وقلال خزف فى الحيطان مبنية »[١] . ولهذه المدينة مياه جارية تدخل فى نهر كان أصله خندقاً قديماً ، وقد بنيت له فى بعض المواضع مسنّاة عالية عن الأرض يجرى عليها الماء ، ووجه هذا النهر رصاص كله ، وهو نهر قديم جاهلى يشق سمرقند ، وهو من أعمر المواضع بها ، وله حاشية غلات موقوفة لمرمّته ومصالحه ، وعليه حفظة من المجوس شتاء وصيفاً فى شرط عليهم بذلك ، ولا تؤخذ منهم الجزية لبيت المال لهذا السبب[٢] . أما مجارى الماء المبنية تحت الأرض فكانت توجد فى مدن إيران الشمالية بنوع خاص مثل قمّ ونيسابور ، وكانتا أكبر مدن المشرق فى ذلك العصر[٣] . ويحكى ناصر خسرو أنه كان بنيسابور كثير من مجارى الماء المغطاة بعضها يظهر فى خارج المدينة ويروى البساتين ؛ وبعضها الآخر يمدّ الدور بالماء ، وكانت هذه على أعماق متفاوتة تفاوتاً كبيراً ، حتى يضطر الإنسان أن ينزل إليها مائة درجة ، ولذلك قال أحد أصحاب النوادر : ما كان أبهى مدينة نيسابور لو أن مجارى الماء فيها أصبحت ظاهرة ، ودخل أهلها تحت الأرض[٤] . وكان على هذه المجارى والأودية قوّام وحفظة[٥] ، وكانت مدينة الدينَوَر مدينة جبلية

---

(١) الأصطخرى ص ٢٩٠ ؛ وابن حوقل ص ٣٣٩ .

(٢) الأصطخرى ص ٢١٦ ؛ وابن حوقل ص ٣٦٦ .

(٣) جغرافية اليعقوبى ص ٢٧٤ — ٢٧٥ .

(٤) رحلة ناصر خسرو ص ٢٧٨ .

(٥) الأصطخرى ص ٢٥٥ ، وابن حوقل ص ٣١٢ ، ومعجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٨٥٧ ، وفيما يتعلق بالسراديب المائية فى الأجزاء التى لم يتم بها نظام المصرف بفارس اليوم انظر كتاب : Gratie. Wanderungen in Persien, 1910, s. 103 ; Hedin, Zu Land durch Judica I, s. 184 .

تتفجر عيونا ، ولم يُرَ أنظف من مائها ، وقد بلغ من رقى أهلها أنهم جعلوا على أفواه العيون مرمّلات وأنطونيات يخرج منها الماء[١] .

أما مسألة تصريف الإفرازات الإنسانية ، وهى من المسائل العسيرة ، فيظهر أنها كانت تُحَل حلا سهلا بالبصرة المشهورة بتجارتها ، ولعله كان بها تجار لهذه المهمة . وكان ذلك موضوعا لأصحاب النوادر ، فيُحكى أن رجلا من أهل المدينة دخل البصرة ثم انصرف ، فقال له أصحابه : كيف رأيت البصرة ؟ قال خير بلاد الله للجائع والعزب والمفلس : أما الجائع فيأكل خبز الأرز والصحناء ..... وأما المحتاج فلا عيلة عليه استُه يخرأ ويبيع[٢] .

وكان اكتراء الحمير منذ القرن الثالث الهجرى وسيلة قريبة للانتقال تستعملها الطبقة الوسطى من أهل المدن ، وكان أكبر محل يقف فيه الحمارون بحميرهم ببغداد عند باب الكرخ ، وهو مدخل القسم التجارى[٣] . وكان بالفسطاط موضع لاكتراء الحمير بالقرب من دار الحرم ، وكان كراء الحمار قيراطين[٤] . أما فى المدن التى تقوم على الأنهار كبغداد والبصرة فقد كان الانتقال بالقوارب أيضاً . وقد أحصيت السُمَيْريات المعبرانيات بدجلة فى أيام الخليفة الموفّق (من سنة ٢٥٦هـ — ٢٧٩هـ) فكانت ثمانين ألفاً يُقدّر كسب ملاحيها فى كل يوم بتسعين ألف درهم[٥] .

أما إدارة المدينة فكان الحظ الأوفر منها فى يد عمال الدولة ، وكان من هؤلاء العمال فى كل بلد من خراسان مثلا أربعة وهم : القاضى ، وصاحب البريد ، والبندار ، وصاحب المعونة[٦] . أما بغداد فكان جزؤها الشرقى تحت إدارة الخليفة مباشرة ،

---

(١) المقدسى ص ٣٩٤ .

(٢) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٦٤٨ ، وعيون الأخبار طبعة بروكلمان ص ٢٦٥ .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٣١ . (٤) ابن سعيد ص ٣٣ ، ويقوله ناصر خسرو عام ٤٤٠ هـ إنه كان بمصر خمسون ألف حمار للكراء (ص ٥٣ من الرحلة) .

(٥) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٢٣ . (٦) ابن حوقل ص ٢٠٩ .

والجزء الغربى كله كان يدخل ضمن عمالة بادوريا ، ولذلك كان لا يتقلد هذا الإقليم إلا أجل العمال ، وذلك لكثرة معاملاته واختلافها وكونها مع الكبراء ، ومن ضبط ذلك كله صلح للأمور الكبيرة[١] . وحوالى عام ٣٢٥ هـ كان أبو الحسين ابن سعد الكاتب يشتغل بتدبير أصبهان ، ووكلت إليه فوق ذلك جباية الخراج ، فكان صاحب البلد[٢] . وكان إلى جانب التنظيم الرسمى تنظيم خاص ، فمثلا لما أسست بغداد قسمت الأرباض إلى أرباع ، وقلد كل ربع لرجل من الحاشية ليديره ، وكان فى كل ربض زيادة على ذلك رئيس وقائد[٣] . وكان الذى يعنى بالأمن فى مقر الأمير أو الوالى صاحب الشرطة ، أما فى المدن الأخرى فكان يتولى ذلك صاحب المعونة ، وكان يقوم إلى جانبهما المحتسب ، باعتباره الممثل الأكبر للمجتمع الذى يعتبر أن له الكلمة العليا ، والذى يشرف على الأفراد ويزعمهم إلى اتباع الحق ، وقد كان منصب المحتسب حوالى عام ٣٠٠ هـ من المناصب الوطيدة ، وكان محتسب بغداد فى جملة أصحاب المخاطبات المعروفة للكتاب ، وكان يجرى مجرى الطبقة الأولى من العمال[٤] ، وأول من بيّن الواجبات المتعددة التى يقوم بها الماوردى[٥] وابن الطوير[٦] ، وفى كثير من الأحيان كان يعهد إليه تولى مهام ، مثل الإشراف على سوق الرقيق ودار الضرب والطرز ، وقد صدر منشور إلى الولاة من بغداد حوالى عام ٣٦٦ هـ جاء فيه فيما يختص بأسواق الرقيق أن يأمر الوالى من تسند إليهم أمرها بالتحفظ فيمن يطلق بيعه ويمضون أمره ، وبالتحرز من وقوع تجوز فيه وإهمال له ، إذ كان ذلك عائداً بتحصين الفروج

---

(١) كتاب الوزراء ص ٧٦ . (٢) الإرشاد لياقوت ج١ ص ١٢٩ — ١٣٠

(٣) جغرافية اليعقوبى ص ٢٤٠ وما بعدها ، وكان رستاق الكرخ اثنى عشرة قرية (كتاب الوزراء ص ٢٥٨) .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٥٨ . (٥) الأحكام السلطانية ص ٤٠٤ وما بعدها من طبعة انجر . (٦) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٦٣ .

وتطهير الأنساب ، و بأن يبعدوا عنه أهل الريبة ويقروا أهل العفة ، و بألا يمضوا بيعاً على شبهة ، ولا عقداً على تهمة ؛ وفيما يتعلق بدور الضرب أمر صاحبها بتخليص عين الدرهم والدينار ليكونا مضروبين على البراءة من الغش ، و بإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يضرب ذهباً وفضة ، و إجراء ذلك على الرسم المعروف ببغداد ، وأمر المشرف على دور الطرز بأن يراعى أن يكون النسج جيداً صحيحاً متيناً ، وأن ينقش اسم الخليفة على ما يعمل من الثياب والفرش والأعلام ونحوها[١] .

وكان المحتسبون يختارون فى الغالب من بين القضاة ، ففى سنة ٣١٩ هـ خلع على محمد بن ياقوت وقلد مع الشرطة الحسبة ، فعظم ذلك على مؤنس ، وسأل المقتدر صرف محمد بن ياقوت عن الحسبة ، وقال : هذا عمل لا يجوز أن يتولاه غير القضاة والعدول[٢] .

وكان أصحاب الشرطة يحملون آلة من السلاح تسمى الطبرزين ، وهى عبارة عن سكين طويل يحملونها معلقة[٣] . وكانوا يقومون بالطوف أو العسس طول الليل إلى صلاة الفجر[٤] .

ولم يكن فى القرن الثانى الهجرى بالمشرق نظام لضبط أسماء الأغراب قبل دخولهم من أبواب المدن[٥] . وقد تكلم أحد الرحالين المسلمين فى القرن الثالث

---

(١) رسائل الصابى طبعة بمبى ص ١١٣ .

(٢) عريب ص ١٤٧ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١٦٥ .

(٣) مقامات الهمذانى طبعة بيروت ص ١٦٢ .

(٤) الفرج بعد الشدة للتنوخى ج ١ ص ١٩ .

(٥) الأغانى ج ١٩ ص ١٤٧ ، حيث أوقف الرشيد ببغداد قائداً على جسر النهروان ليتصفح الناس الذين يدخلون بغداد ويتعرف رجلا كان الخليفة يطلبه ، وهذه طريقة كان معمولا بها فى لو وجدت ثم . جلات . (المترجم)

الهجرى عن نظام جواز المرور المعروف بالصين كلام من يعتبر ذلك شيئاً جديداً لا عهد له به[١] ، وقد أحدث السلطان عضد الدولة فى القرن الرابع الهجرى لأول مرة نظام مراقبة الأبواب فى مدينة شيراز عاصمة بلاده ، حتى قال المقدسى فى حقها « ومنع الخارج منها إلا بجواز ، وحبس الداخل والمجتاز »[٢] .

---

(١) سلسلة التواريخ طبعة رينو ص ٤٢ . وقد كان بمصر منذ أول العصر الإسلامى نظام جوازات دقيق فيما يختص بالانتقال الداخلى C. H. Becker, Papyri Schatt — Reinh I, 40 وكذلك لم يكن يجوز للرجل أن يخرج من مصر على عهد الطولونيين إلا بجواز (المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد طبعة فولرز برلين ص ٥٢ عام ١٨٩٤) .

(٢) المقدسى ص ٤٢٩ .